

النص وإشكالية المنهج من نداء الذات إلى فضاء التطبيق

الطالبة: أمينة تجاني

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

مقدمة :

إنّ النّص منجز مكتوب مثقل بحمولات معرفيّة وثقافيّة وفكريّة وعلميّة، حامل لرؤى وأطر ومشروعات مختلفة، ينوي بها أصحابها التأثير في الآخرين من خلالها وتحقيق أهدافهم ومقاصدهم المتنوّعة ، لذا اعتبرته جوليا كريستيفا تحويلا للواقع وتأثيرا فيه، حيث تقول: " إنّ النّص ليس اللغة التّواصلية التي يقننها النّحو، فهو لا يكتفي بتصوير الواقع، أو الدلالة عليه، فحيثما يكون النّص دالاً... فإنّه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به لحظة انغلاقه"¹.

ولذلك فهو لم يولد من فراغ بل هو منتج ذهني، وهذا المنتج مبني وفق شبكة من الرّوى والعلاقات، ومحكوم بالآليات كثيرة، نزع الكاتب لاستخدامها بتصوّر معين"². إنّّه عالم متكامل يجمع بين معارف عديدة لغويّة وتربويّة ونفسيّة واجتماعيّة، لتعيش في رحم النّص والأنسجة اللغويّة من أصوات وكلمات وتراكيب، لتفرخ فيصير بذلك النص وحدة معرفيّة تتفاعل فيها معارف لسانیّة وغير لسانیّة، ممّا يجعله يتجاوز كونه مجرد ظاهرة لسانیّة إلى مرونة اجتماعيّة ثقافيّة أوسع نطاقاً، إنّّه وسيلة لنقل المعرفة والثقافة، له ديمومة الزّمان والمكان³. ولهذا لا يمكن النّظر إلى النّص بزعم أنه مجرد صورة مكوّنة من الوحدات الصّرفيّة أو الرّموز. إنّ

النص تجلّ لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصًا ويوجّه السامعين به إلى أن يبنوا علاقات من أنواع مختلفة⁴.

ولكن كيف يمكن الوصول إلى هذه العلاقات؟ أو بالأحرى كيف ينتج هذا النصّ معناه؟ وكيف نتعامل معه؟ وما هي الأدوات الإجرائيّة التي تستطيع أن تفكّ شفراته؟ وهل هذه المفاتيح هي عناصر خارجية عن النصّ أو أنّ كل نص يفرض أدوات إجرائيّة تناسبه، وتتبع من داخله؟

أو بمعنى آخر هل النصّ هو الذي ييوح لنا بالمنهج الذي بواسطته نتعامل معه، أم أنّ تصوّرنا المشكّل عن المناهج هو الذي بواسطته ندخل عالم النصّ؟ وهل نكتفي بوصف النصّ في شذرات متفرّقة أم لابدّ من البحث عن تخريج دلالي موحدّ يجمع تلك الشذرات المتفرّقة ليكشف عن مشروع النصّ؟

وهذه هي الإشكاليّة التي تعترض كل باحث أو دارس أو ناقد؛ اختيار المنهج المناسب للدراسة، وهنا تكمن الصّعوبة؛ صعوبة الاختيار والتّطبيق. فقد نجد في بعض الأحيان تعسّفًا واضحًا في إسقاط المنهج على النصّ كون الدّارس أو النّاقّد خادما طيِّعًا للفلسفة التي أنتجت ذلك المنهج. أو نجد تحليلًا مثقلًا بجداول وإحصاءات عقيمة لا تجدي نفعًا، وكأنّ تحليل النّصوص لا يعدو أن يكون تفكيكا لبنيتها اللغويّة، ووصفا لتلك المكوّنات البنائيّة المفكّكة. ولكن الحقيقة أكبر من ذلك، فتحليل النصّ لا يعني لملمة معانيه واختيار أفضل المناهج الغريبيّة وفرضها عليه قصرًا، بل هو كيان وذات مستقلة لها نداء خفي تبوح فيه بسرّها لمن أرهف السّمع وأصغى إليه.

ولكن السّؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف نستمتع إلى نداء النصّ؟ وما السبيل إلى ذلك؟

1- النصّ ونداء الذات :

إنّ "النصّ عالم مهول من العناصر اللغويّة المتشابكة"⁵، والتعامل معه يبدو للوهلة الأولى أمرًا معقدًا ومتداخلًا، وقد لا يفضي بمشروعه ببسر إلا بعد مشقة وجهد جهيد. وهذا يعني أنّ "النصّ هو الذي يفرض منهج قراءته وزاوية مقاربتّه بالطريقة التي تجعل المنهج يبدو وكأنه لا يطلب الاستقرار ويقوم في كل مرة بفتح الباب أمام احتمالات جديدة، ويتقدّم بعيدًا عن المعيارية والإسقاط والتعسّف. وقريبًا من النصّ الأدبي بالشكل الذي يجعل التّحليل

عنصرًا مشتركًا بين القراءة والكتابة⁶. فالنص فضاء مفتوحًا متعدّد القراءات لا يقبل التفسير في تطبيق المناهج، ولكنه يوحي بمعانيه ودلالاته؛ وذلك من خلال نداءاته التي يمكن اكتشافها عن طريق القراءة.

وعليه فالقراءة هي "عملية استكشافية تنويرية تأويلية ذات بعد دلالي مقصود"⁷. وهي أيضا "أداء معرفي أو نشاط ذهني مسلط بقصدية لتقصّي مساحات نص مكتوب، هذا التقصي محكوم بالآليات وعي متوازنة وبنويّات تخطيطية واضحة ترسم ملامح الغايات المرجوة من وراء القراءة"⁸. ولا نقصد بها القراءة السطحية العقيمة، بل تلك المتأنيّة التي تقترب من النص لتكتشف شبكة علاقاته الداخليّة، والتي تثير استفزازًا في ذهنيّة القارئ، "إنّها قراءة تتجه نحو تأسيس فعل يستمر من خلال تلك الأدوات الإجرائية التي ترسم معالم جمالية النص... إنّها قراءة تأصيلية لهذا الفعل المؤسس للمعرفة"⁹.

إنّ القراءة التي تستطيع أن تصغي لنداء النصّ وتشخص مفاتيحه ومن ثمة تكشف عن المنهج المناسب، هي القراءة المتكاملة فقط التي تبتدئ بلحظات انطباقية أولى تشكّل مبررًا لتواصل القراءة، ثمّ حالة استنطاق لمركبات ومفردات النصّ تتبعها حالة تأويل فلسفية وفق رؤية معينة يحددها الفاعل أو القائم بفعل القراءة¹⁰. فهي تتعدّى القراءة الواحدة إلى قراءات متعدّدة، لأنّ النصّ لا يبوح بأسراره مرّة واحدة ولكن شيئًا فشيئًا؛ فأما الأولى: استكشافية تسكشف لغة النصّ وبنية السطحية التي تمثّل مدخلًا حيويًا لباطن النصّ. وأمّا الثانية: الاستنطاقية والتي تعني تجسس نبض النصّ واستنطاق لغته وصولًا إلى معانيه. وأمّا الثالثة: التأويلية التي تقوم بتأويل المعاني وربطها ببعضها البعض من أجل إنتاج وجهة نظر كلية حول النصّ.

وعليه يمكن القول إنّ "القراءة هي التي تستطيع أن تشخص مفاتيح النصّ ضمن تدرجات مستويات المعنى، فالوصول إلى المعنى الكامن في عمق النصّ"¹¹. ليتحوّل النصّ إلى "نقطة

لقاء بين قدرة التعبير وفاعلية التأويل. تأخذ حجمها الفعلي مع كل قراءة، ومع اقتدار كل قارئ¹².

2- المنهج :

إنّ المنهج في أبسط تعريفاته يتمثل في مجموعة من المفاهيم والتصورات المتصلة والأدوات والخطوات الإجرائية التي تعمل مع بعضها البعض في تناسق وتوافق لتفضي إلى نتيجة ما. فهو " طريقة موضوعية يسلكها الباحث في تتبع ظاهرة أو استقصاء خبايا مشكلة ما لوصفها أو لمعرفة حقيقتها. وتبعاً لذلك فالمنهج رؤية تتوخى الوصول إلى أسرار النص ومقاصده وأداة بحث منهجية تقرب تحقيق هذه الغاية"¹³. فهو يمثل الإطار العلمي الذي يساعد القارئ أو الناقد على كشف جماليات النصوص وفهم مكوناتها وأبعادها الدلالية، أي أنه " طريقة في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن، كما أنه وسيلة تحصن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري"¹⁴. وهذا يعني أنه هو المفتاح الإجرائي الذي يساعدنا على كشف بواطن النصوص وحقائقها، لأنه ليس مجرد أداة منهجية فحسب، وإنما يختزل رؤية خاصة للعالم شارك في تفعيلها مجموعة الخلفيات السوسيوثقافية وغيرها التي أدت إلى ظهوره، وبالتالي فهو يساعدنا على رصد أبعاد النص الإبداعية¹⁵.

3- نداء النص وفضاء التطبيق :

إن التوجّه نحو النص والاستماع إلى ندائه يستدعي هذا السؤال: كيف يمكن التعرف على المنهج المناسب الذي من خلاله نتعامل مع النصّ أولاً؟ وكيف يمكن تطبيقه ثانياً؟ إنّ القراءة هي الوحيدة القادرة على تحطّي حدود أثر النصّ إلى " الكشف عن إمكانية تعدّد الدلالة في النصّ الواحد، وهو إقرار بلا محدودية الأثر وقابليته للانفتاح، وإقرار أيضاً بالتأويل. إذ أنّ الكشف عن تعدّد الدلالة رهين ظروف الناقد الذي يدخل النصّ في نظامه دون تعسف"¹⁶. فالقراءة هي التي تكشف عن مفاتيح النصّ ومنهجه المناسب، ويمكن تقديم أمثلة على ذلك حتى يتضح الأمر أكثر:

أ- سورة النور :

لو أخذنا سورة النور مدونة للدراسة، فسوف نبدأ بقراءتها قراءة متكاملة فاحصة. يقول تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدُ عِدَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)﴾¹⁷.

من خلال القراءة سوف يتضح جلياً التكرار المتواجد بكثرة في هذه السورة، ومن أمثلة ذلك (أنزلناها وأنزلنا، الزانية والزاني، فاجلدوا وجلدة، مشرك ومشركة....) وهذا التكرار يبيح لنا بمفتاح النص، ألا وهو الانسجام الذي يقودنا إلى اللسانيات النصية التي تسمح لنا بمقاربة هذه السورة. وما يؤكد ذلك انسجام اسم السورة (النور) مع هذه الآية التي يقول فيها تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾¹⁸.

فالانسجام في هذه السورة يكشف عن الدلالة الكلية للسورة أو المشروع الذي أنتت به، والذي يمكن تطبيقه على أرض الواقع؛ ألا وهو انسجام الأسرة في علاقة الأبوين بأبنائهما، وانسجام المجتمع في علاقات أفرادهم ببعض البعض ليكونوا المجتمع المثالي التوراني الذي تتحدث عنه السورة، فهي تبين أدب العلاقات الإنسانية "والآداب الاجتماعية، إنها سورة تعنى بشؤون الناس داخل بيوتهم، إنها تعنى بكيفية الحفاظ على أدب العلاقات بين أفراد المجتمع، وكيف نصل إلى حالة من الانسجام والفضيلة في مجتمعنا، وكيف ننقيه من الفساد والزديلة"¹⁹. وإضافة إلى مفتاح اللسانيات النصية الذي كشف لنا عن المنهج الوصفي بمقاربة اللسانيات النصية، فإن السورة تبوح بمفاتيح أخرى مساعدة منها: علم التفسير لفهم السورة، علم الحديث الشريف لمعرفة حادثة الإفك التي تتحدث عنها السورة، علم المناسبات لمعرفة مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وعلم الأصوات للتوصل إلى الانسجام الصوتي للسورة وهكذا.

ب- سورة آل عمران:

إِنَّ قِرَاءَةَ السُّورَةِ قِرَاءَةٌ مَتَأَنِيَةٌ تَصْغِيٌّ وَتَسْتَمْعٌ لِنِدَائِهَا سَوْفَ تَكْشِفُ عَنِ الْمَفْتَاحِ الْأَوَّلِ لِدِرَاسَتِهَا وَهُوَ الْحَاجُّ، لِأَنَّ الْآيَاتِ الْأُولَى (من 01 إلى 65) تَتَحَدَّثُ عَنِ مَحَاوِرَةٍ وَفَدِ نَجْرَانِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَوْلَ إِلَهِيَّةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)﴾²⁰.

إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)﴾²¹.

فَهَذِهِ السُّورَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ حِوَارِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ وَفَدِ نَجْرَانِ وَإِقْنَاعِهِمْ بِأَدَمِيَّةِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِنْتَظَرَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ مَنَاطِقَاتٍ يَقِينِيَّةٍ يَتَّفِقُ عَلَيْهَا كِلَا الطَّرْفَيْنِ وَتَتَمَثَّلُ فِي كَوْنِهِ بَشَرٌ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَوَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَهَذَا يَنَافِي الْأُلُوْهِيَّةَ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَتَعَالَى عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَالْمَفَاتِيحُ الَّتِي تَبُوحُ بِهَا السُّورَةُ كَثِيرَةٌ؛ أَوْلَاهَا الْحَاجُّ الَّذِي يَقُودُكَ إِلَى التَّدَاوُلِيَّةِ، إِضَافَةً إِلَى عِلْمِ التَّفْسِيرِ لِفَهْمِ السُّورَةِ أَكْثَرَ، وَعِلْمُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ لِمَعْرِفَةِ الْقِصَّةِ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالنَّصَارَى. وَهَذِهِ الْمَفَاتِيحُ تَجْعَلُكَ تَصِلُ إِلَى الدَّلَالَةِ الْكَلِمِيَّةِ لِلسُّورَةِ وَالَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي دَعْوَةِ الْمُسْلِمِ إِلَى فَتْحِ الْحِوَارِ مَعَ الْآخِرِ وَإِقْنَاعِهِ بِالْحُجَّةِ وَالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ، وَتَعَلَّمَ فَنَّ الْحِوَارِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَوَاصِلَةَ نَشْرِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا لِلْعَالَمِ أَجْمَعٍ بِالْحِوَارِ الْفَعَالِ وَالْحِجَاجِ الْمَقْنَعِ، بَعِيدًا عَنِ الْعَنْفِ وَسَفْكَ الدَّمَاءِ.

ج- سورة الكهف:

عِنْدَ قِرَاءَةِ السُّورَةِ قِرَاءَةٌ مَتَوَاصِلَةٌ تَكْشِفُ لَنَا فِي بَادِي الْأَمْرِ عَنِ أَرْبَعِ قِصَصٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ الْأُولَى قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكُهْفِ، وَالثَّانِيَّةُ قِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَالثَّلَاثَةُ قِصَّةُ مُوسَى - عَلَيْهِ

السّلام- مع الخضر، والرابعة قصّة ذي القرنين. وعند إعادة القراءة مرّات ومرّات تبوح لنا بوجود قصديّة تربط هذه القصص ببعضها البعض حتى يستفيد منها المسلم في كل زمان ومكان.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى (13) ﴾²². تتحدّث هذه الآيات عن الفتية الذين فرّوا إلى الله تعالى للمحافظة على دينهم وإيمانهم. وفي قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾²³. تذكر هذه الآية الرّجل الذي طغى بماله وتكبر عن جاره حتى أنّ كبره أنساه ذكر الله تعالى. وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (66) ﴾²⁴. تتحدّث هذه الآيات عن فتنة العلم والتي قد تهلك صاحبها أو تنجيها. وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) ﴾²⁵. تتحدّث هذه الآيات عن فتنة القوّة والسلطة والجاه، والتي قد تكون في طاعة الله أو في معصيته، وحسب البدايات تكون النتائج.

فالمفتاح الذي تبوح به هذه السورة هو القصديّة؛ ما القصد وراء جمع هذه القصص في سورة واحدة، وما القصد من ذكرها لنا. وهذا المفتاح يحيل القارئ إلى اللسانيّات النصيّة والتداوليّة؛ فالأولى لأنّ القصديّة تمثل أحد المعايير النصيّة، وأمّا الثانية فلكون التداوليّة هي التي اهتمت بمقاصد المتكلمين وبالتحديد مع أفعال الكلام عند (أوستين) و (سورل). فالقصديّة إذن هي التي تكشف عن مقاصد هذه القصص التي تتحدّث في مجملها عن فتنة الدّين والمال والعلم

والقوة، والتي قد يتعرّض لها الإنسان في كل زمان ومكان والدلالات توجّه المسلم إلى طرق التّخلص من هذه الفتن وتقاديبها.

د- الأربعون نووية :

عند قراءة نص الأحاديث الشريفة في الأربعين نووية تكشف للقارئ منذ الوهلة الأولى عن مفتاحها، وهو أفعال الكلام التي تحيلك إلى التداولية مباشرة. فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة"²⁶. وقوله أيضا: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"²⁷. وقوله أيضا: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"²⁸. وهذه الأحاديث تدخل ضمن التوجيهات التي تشمل الأوامر والنواهي. وأما في قوله صلى الله عليه وسلم: "من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة..."²⁹. وقوله أيضا: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب..."³⁰. نجد الوعد الذي قد يكون بالثواب أو بالعقاب، فتنتهي هذه الأحاديث إلى الوعديات، وهكذا باقي الأحاديث الشريفة الواردة في الأربعين نووية، ولكن لا يمكن ذكرها كلها.

إنّ المنهج التداولي وبالتحديد أفعال الكلام تكشف عن مشروع الأربعين النووية والمتمثل في تغيير سلوك المسلم في الحياة اليومية من أجل إرضاء الله تعالى ورسوله- صلى الله عليه وسلم- حتى ينعم الفرد والمجتمع بالسعادة التي ينشدها دوما في الدنيا والآخرة.

هـ - خمرة أبي مدين التلمساني:

عند قراءة خمرة أبي مدين التلمساني التي تقارب الخمسين بيتا تفضي لقارئها بمفتاحها الذي يبوح بسرّها ومكوناتها، والمفتاح هنا هو الرّمز؛ حيث يكثر في هذه القصيدة الرّمز الصوفي بأنواعه الثلاثة: المرأة، الخمر، والطبيعة. وهذا المفتاح يلقي بك في رحاب السيمائية.

يقول أبو مدين التلمساني:

هي الخمر لم تعرف بكرم
ولم يجلبها راح ولم تعرف الذّنا
وفي كل روح تعرف العهد عهدا
وفي كل قلب جاهل للسوى مغنى

مشعشة يكسو الوجه جمالها
وفي كل شيء من لطافتها معنى
حضرنا وغبنا عند دور كؤوسها
وعدنا كأننا لا حضرنا ولا غبنا
وأبدت لنا في كل شيء إشارة
وما احتجبت إلا بأنفسنا عتًا³¹

إنّ نصّ القصيدة يسفر عن ستره ويبيح بمنهجه المناسب للتعامل معه؛ المنهج السيميائي. كما يكشف عن مفاتيح أخرى مساعدة على التحليل والتأويل؛ علم التصوّف ومعرفة رموزه ومصطلحاته، وعلم الأصوات والتراكيب والدلالة. ليوصل دارسه إلى دلالاته الكنيّة ومشروعه الحقيقي المتمثل في كنيّة الوصول إلى المحبّة الإلهيّة والخمرة الأزلية التي لم تعصر من عنب ولم تخزن في دنّ، ولكنها محبّة الأرواح لخالقها حين تستغرق في الذّكر، وفي التّدبر والتأمّل فتذهل عن الوجود وتغيب عنه.

و- رسالة الشيخ أحمد التجاني:

هذا مقتطف من نص الرسالة: ".... والأمر الذي لا بد منه بعد هذا، وهو بداية جميع الأمور ونهايتها هو تعلق القلب بالله تعالى، فإن قدر العبد على ارتحال القلب إلى الله بكل وجه وعلى كل حال بحركة القلب حسًا فهو الغاية وإن لم يقدر فليلازم بعد كل صلاة هذا الدعاء ثلاثًا أو سبعا، ثم يمر به على قلبه في غير الصلوات ويحمل نفسه عليه يصير له ذلك حالا. والدعاء هو هذا: اللهم عليك معوّلي وبك ملاذي وإليك التجاني، وعليك توكلي وبك ثقتي وعلى حولك وقوتك اعتمادي وجميع مجاري أحكامك رضائي، وإقراراي بسريان قيوميتك في كل شيء وعدم احتمال خروج شيء دقّ أو جلّ عن علمك وقهرك حتى لحظة سكوني"³². عند قراءة هذه الرسالة قراءة متمنّنة تكشف للقارئ عن مفاتيحها؛ حرف القاف في (تعلق، القلب، قدر، يقدر، قلبه)، الكسرة وحركات المدّ في (معوّلي، ملاذي، التجاني، ثقتي، توكلي...)، الأسماء وخاصة في نص الدّعاء (حولك، قوتك، مجاري أحكامك، سريان قيوميتك...).

وهذه المفاتيح؛ الأصوات والأسماء تحيلنا إلى علم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدلالة، لنجد أنفسنا أمام المنهج الأسلوبي بمستوياته الأربعة الذي يحاول الكشف عن مشروع الرسالة والتمثّل في طرق الوصول إلى التعلّق بالله عز وجل في كل الأمور وفي كل الأوقات.

و**خلاصة القول** إنّ قراءة النصوص والإدماج عليها تكسب القارئ مهارة فهمها والإنصات لنداءاتها الخفية التي تبوح له بأسرارها وكوامنها، وطريقة التعامل معها والمنهج المناسب لذلك والمفاتيح القادرة على فك شفراتها، وهنا يتخلص القارئ من إشكالية اختيار المنهج، بل يجد أنّ هذا الأخير هو الذي يكشف عن نفسه ويسفر عن حقيقته، وقد تتداخل المناهج أو تتعدّد في النص الواحد. وهذا يدعو إلى التّواصل مع كل النصوص بمختلف أنواعها؛ قرآني، نبوي، صوفي، شعر، نثر، قديم، حديث... من أجل الكشف عن دلالاتها الحقيقية لأنّ لكل نص مشروع ورؤية معينة لا بدّ من معرفتها والاستفادة منها.

الإحالات والهوامش:

- 1 جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهر، دار توبقال، المغرب، ط1، 1991، ص 05.
- 2 عزيز التميمي، منظومة القراءة، دراسات وقراءات نقدية، www.nashiri.net، نشر إلكتروني في يوليو 2003، ص 04.
- 3 ينظر: لطيفة هباشي، استثمار النصوص الأصيلة في تنمية القراءة الناقدة، عالم الكتب الحديثة، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2008، ص 01.
- 4 دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1998، ص 92.
- 5 عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، دار سعاد الصباح، الكويت، ط3، 1993، ص 14.
- 6 حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءة من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، 2009، ص 08.
- 7 عزيز التميمي، منظومة القراءة، ص 07.
- 8 المرجع نفسه، ص 07.
- 9 محمد تحريشي، أدوات النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 05، 06.
- 10 عزيز التميمي، منظومة القراءة، ص 04.
- 11 المرجع نفسه، ص 05.

- 12 الحبيب المونسي، فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدّد، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 206.
- 13 حلام الجيلالي، المناهج النقدية المعاصرة، <http://www.alyaum.com>، 03 ماي 2004، ص 01.
- 14 المرجع نفسه، ص 02.
- 15 ينظر: نصيرة مصباحية، تجليات المنهج اللغوي الجمالي عند مصطفى ناصف، <http://www.diwanalarab.com>، الأربعاء 14 تموز (يوليو) 2010، ص 01.
- 16 توفيق الزّيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار الغربية للكتاب، ليبيا، 1984، ص 136.
- 17 سورة النور، الآيات 1، 2، 3.
- 18 سورة النور، الآية 35.
- 19 عمرو خالد، خواطر قرآنية، نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2004، ص 255.
- 20 سورة آل عمران، الآيات 19، 20، 21.
- 21 سورة آل عمران، الآيات من 59 إلى 61.
- 22 سورة الكهف، الآيات من 09 إلى 13.
- 23 سورة الكهف، الآية 32.
- 24 سورة الكهف، الآيات من 63 إلى 66.
- 25 سورة الكهف، الآيتين 83، 84.
- 26 الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، اعتنى بها: محمود بن الجميل، دار الإمام مالك، الجزائر، ط2، 2010، ص 120.
- 27 المرجع نفسه، ص 165.
- 28 المرجع نفسه، ص 161.
- 29 المرجع نفسه، ص 393.
- 30 المرجع نفسه، ص 414.

31 العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، محمد الطاهر العلاوي، دار الأمة للطباعة، الجزائر، ط1، 2004، ص 138.

32 سيدي علي حرازم بن العربي بُرادة الفاسي، جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص 644.